الأفكار القوية تزداد قوة

إن الأحداث التي مرّت على المسرح العالمي والمنطقة العربية والشرق بمجملها، في علاقة الشعوب التي تنتمي إلى حضارات مختلفة، ترفد الفكرة التي دار حولها موضوع البحث الذي تناولته في كتابي الذي صدر في طبعة أولى في عام 2004 تحت عنوان (صدام المصالح و حوار الحضارات) و هذه الفكرة هي أن الحضارات عبر تاريخها وتطورها، وعبر وراثة كل منها لسابقتها وتطويرها، عرفت كيف تتحاور تحاور حضارات، مثلما تصادم بعضها، أو صدمت أحداها الأخريات، كما فعلت الحضارة الغربية في العصر الحديث، بنموذجها الليبرالي، الذي اعتبره فوكوياما وقبله هيغل ومن بينهما، نهاية أو غاية تطور النشاط البشري، والنموذج الذي يشع على الشعوب التي يجب أن تحتذيه لتصل إلى المستوى الذي وصله الغرب في تطوره، وهي إحدى الحضارات التي عدّها هنتجتون فيما عدّ من حضارات عالمية، وأشار إلى أنها قد تكون في حالة صدام مع الحضارات الأخرى، خاصة الإسلامية والصينية، وهو يستبطن في رؤيته آفاق تطور أو نهوض الحضارتين الراكدتين فيما يبدو، وربما وجد مؤشرات على نهوضهما من جديد في العقود الأخيرة، ما يجعلهما كما يرى في حالة صدام مع حضارته الغربية ـ ولو أنصف لقال إن الحضارة الغربية حريصة أن تبقي هذه الحضارات في حالة تبعية من وجوه مختلفة للحضارة الغربية، ما يدفع هذه الأخيرة إلى إرباك غيرها، بزيادة الضغوط عليها، وإحداث الصدامات معها، كي لا يتاح لها أن تتطور كما يجب.

والحديث في الموضوع مجدداً يعود إلى مسارات، أو سياقات وأنساق، أهمها:

1. السياق الفكري

obeikandi.com

لم يهدأ الحديث حول رؤية هنتجتون، وفي الغالب كان المتحدثون حول صدام الحضارات أو حوارها، غير متفقين معه في رؤيته الصدامية ـ مع ضرورة التفريق بين الصدام و الصراع ـ ربما غدا بعض من نبتت فكرته في وسطهم الثقافي والفكري، ممن يمثلون المحافظين الجدد في أمريكا، ومراكز بحوثهم التي تنتج من الفكر ما يخدم سياسة القوة المتغطرسة والهيمنة الأمريكية في ظل أحادية القطب. وهؤلاء لم يكونوا ينظرون بعين الإنصاف أو توخي الحقائق، ولا يريدون إلا وضع طاقاتهم الفكرية في خدمة السياسة الأمريكية، وكأنهم يثيرون عالم الاستشراق الذي كتب عنه إدوارد سعيد. ومنهم مستشرقون مثل برنارد لويس الذي هو الأب الحقيقي للفكرة. من الهام جداً أن نلاحظ طريقة تفكير المفكرين الغربيين ـ أو بعضهم ـ بحضاراتهم، وكيف ينظرون إليها وإلى دورها، بل إلى عدوانيتها التي تعزز الشراسة التي تواجه بها خصوماً محتملين تسعى لعرقلتهم كي لا يصلوا إلى حالة الندّية.

والغربي بالتأكيد حين يتحرر من الرؤية الأحادية، يكون في حالة صدق مع الذات. فهذا إيرفين لاسو ـ وهو أحد مفكري العصر الحالي والملقب بعبقري التفكير المنظوماتي ـ يطلق دعابة مرعبة في مرارتها، يوردها عقبة زيدان وهو يعرّف بكتاب "في دوامة التاريخ" تأليف: ليف غوميليوف، يقول لاسو: "لو أن كل نوع من الأنواع الموجودة على الأرض حصل على صوت واحد، وجرى تصويت عام على سؤال ما إذا كان ينبغي السماح للحضارة الغربية أن تستمر في الوجود، أظن أن جميع الأنواع وربما باستثناء الصراصير والجرذان، كانت ستصوت ضدنا، ولكانت نتيجة هكذا استفتاء 100٪ من الأصوات "ضد": الحضارة الغربية ليست جيدة بالنسبة إلى كوكب الأرض، يجب أن تهلك".

ويعلق عقبة زيدان على هذا الكلام الصادم في واقعيته ومرارته الصريحة: " إذا كان رجل مثل لاسو، رغم كل سعة اطلاعه وفهمه لتغيير العالم نحو الأفضل، لا يؤمن بهذا العالم بوصفه الحالي، فإن هذا يدل على أن العالم فعلاً قد وصل إلى مرحلة يجب أن يهلك فيها. والهلاك لا يعني القضاء على الناس فيزيولوجياً، بل قتل

التفكير بالطريقة التي يحيا بها الغربيون، وإزالتها وفتح المجال لحضارة بديلة لا مكان للقتل والعنف والتدمير فيها. وكما يرى لاسو فإن الحضارة الغربية ستقود العالم إلى كارثة مرعبة" [1].

المشكلة أنه في كثير من الحالات، نجد الغرب أو العالم يستمع وينقاد إلى المجانين أكثر مما يستمع وينقاد للعقلاء، فهو يستمع إلى هنتجتون وأمثاله ممن يطرحون الأفكار التدميرية أكثر من الاستماع إلى لاسو وأمثاله ممن يطرحون الأفكار العقلانية وضبط السلوك، وإلى أن تراجع القوى المتغطرسة طرائق تفكيرها وسلوكها الذي يقود العالم إلى الكوارث، عن طريق الفهم للامتلاك.

ومن أجل تأكيد الفكرة السابقة والتي أحسن كثيرون من مفكري ومثقفي العالم بخطر فكرة الصدام، فعبروا عن رفضهم لها، يقول باتريك تاديوس جاكسون، في مقال بعنوان " أسلوب التفكير في الحضارات" ويبدو أنه مشغول بذلك: " ما من باحث في ثقافات وحضارات يرى نفسه "هنتجتونياً" وعملياً مرة أخرى ما من باحث معاصر إلا ويحرص أن ينأى بنفسه عن عمل هنتجتون عبر توجيه النقد إلى تطور الأخير للحضارات بوصفه تصوراً مفرط الجمود، بالغ الثبات، شديد الجوهرية. "يقبل جل المحللين على تبني مفهوم أن الحضارات منظومات مغلقة مثل كرات البلياردو، بل هي منفذة ومنفتحة على التأثيرات الخارجية" [2].

إن رفض الانغلاق كميزة تميز الحضارات، هو الذي يعمل له جل المفكرين الذين يفكرون بطريقة عقلانية تاريخية، تأخذ بعين الاعتبار أن التنوع هو السمة الرئيسة للحياة الحضارية، ليس في العصر الحديث، بل حتى في العصور القديمة قبل أن يكون التبادل والتواصل بهذه السهولة، وهذا من شأنه فتح الباب على قبول الآخر وقبول الاختلاف وتخفيف الاحتقان وتمكين ثقافة الاعتراف بالآخر ودوره، وبالخطأ وطرائق تجنبه، وبضرورة الانفتاح والتعاون بين أبناء العالم الواحد من أجل

[1] - عقبة زيدان، ملحق الثورة الثقافي، عدد/ 788 / ت 12/ 6 /2012.

[2] -الحضارات في السياسة العالمية - وجهات نظر جمعية وتعددية، تحرير إبترجي كاتزانشتاين، ترجمة: فاضل جتكر، عالم المعرفة/385/ فبراير/ 2012 ص 287.

obeikandl.com

تجنيب البشرية كوارث تبدو مؤشراتها بارزة مثل التلوث وتغير المناخ والتصلب العقائدي المنتج للإرهاب والتناحر. فإذا كانت الثقافة تبدأ حيث ينتهي جهل الناس، فإن الحضارة تقودهم إلى إنهاء التناحر والفوضى كما يجب، فتنهي قلقهم، وما لم تفعل ذلك، فهم لم يدخلوا عصر التحضر.

لم تعرف الحضارات سابقاً نكران فضل إحداها على الأخريات، ولا الدور الذي ساهمت به في تطوير الآخرين، إلا عندما آلت الأمور إلى بعض المتعصبين من مفكري الغرب الذين يخدمون أجندات عدوانية، ومن أبرزهم كما أشرنا، ممن ساهموا في دراسة الشعوب الأخرى "المستشرقون" ثم وظفت دراساتهم في العدوان على هذه الشعوب. وكبار الفلاسفة يشهدون على تأثير الحضارات ببعضها لانسجامهم مع حقائق الحياة والتاريخ، ولأنهم لا يغامرون في خسارة مصداقيتهم العلمية والفكرية كما يفعل بعض مفكري مراكز الأبحاث الأمريكية الحديثة. فهذا برتراند رسل يقول: "هكذا أصبح علم الإغريق وفلسفتهم، والأهم من ذلك فنهم، تمارس تأثيرها في الحضارات الشرقية القديمة، وتشهد الآثار الباقية على هذا الغزو الثقافي، وبالمثل فإن الشرق مارس تأثيراً جديداً على الغرب، ولكن هذا التأثير كان أقرب إلى التراجع والانتكاس، إذ يبدو أن ما استحوذ على خيال اليونانيين أكثر من أي شيء أخر في ذلك الحين كان التنجيم البابلي. وهكذا كان العصر الهلنيستي، على الرغم من كل ما فيه من توسع علمي وثقافي أشد إيغالاً في الخرافة من العصور الكلاسيكية، وانتقل مركز البحث من أثينا إلى الإسكندرية وهي أنجح مدن الإسكندر الجديدة. وملتقى العلماء والكتاب من كل أرجاء العالم" [3] وهو لا يتردد في القول بعد حديثه عن آثر المسيحية والإسلام: "لقد كانت روما حضارة تكاد تكون كلها مستعارة" ما يشير إلى إيمان المفكرين العالميين الكبار بما بين الحضارات من تعاون وحوار، عكس ما هو عليه موقف الفكر الغربي المتعصب الذي لايرى إلا ذاته وينكر على الآخرين أدوارهم، وهؤلاء لا يكتفون بإثبات أن الغرب صديق نفسه فقط، بل يحرصون على وضع

[3] - برتراندرسل، حكمة الغرب، ترجمة: د. فؤاد زكريا، عالم المعرفة/364/ يونيو/ 2009 ص 183- 184

الشعوب في الخنادق العقائدية المتناحرة. يريد برنارد لويس تأكيد فكرة التناقض، بل وامتناع اللقاء الحواري بين الحضارات، فاللقاء بينها لا يكون إلا صدامياً، ومعروف أن لويس من أكثر المنظرين أو المستشرقين تأكيداً لتفوق ثقافته الغربية والحضارة الغربية الليبرالية على ما عداها من ثقافات وحضارات في العالم، ومثله مثل صنوه هنتنجتون، يجعل الإسلام والشرق في بؤرة تفكيره عندما يريد أن يبرز الحضارة من خلال تناقضها مع غيرها، فالإسلام بل والشرق العربي الإسلامي منذ القديم، فالغزوات التي جاءت من الشرق وإن كانت مدمرة فهي في الغالب كانت تنتهي بالاندماج بالإسلام، وتحمل رايته بعد ذلك، كالغزو السلجوقي والمغولي والتركي. والفارق بينه وبين غزو الغرب لبلاد العرب والمسلمين واضح، فمع أن الحملات الصليبية استمرت ما يقرب من قرنين فلم يحدث لأي منها أي اندماج بحياة الشرق والإسلام كلياً أو جزئياً [4].

برنارد لويس هنا يلخص الحضارات بالعقائد الدينية مثل ما فعل هنتنجتون، وإذا كان هناك من شيء يستدل عليه، فهو صلابة الكتل الإيمانية وعدم تحولها، فهي كتل نهائية تصلبها العقائد غير المتحولة والتي تصدرها السماء، عكس عقائد الشرقيين التي لم تكن تنتسب إلى السماء، وبالتالي لا تكسب الصلابة التي تحول بينها وبين التحول عندما نجد ثقافة أكثر منها تقدماً فتذوب فيها. ومع ذلك فإن الباحثين يشيرون إلى مجالات كثيرة تأثرت بها الدراسات العقدية ببعضها، خاصة وأنها تنتمي إلى حقل التوحيد المشترك[5]. لويس هنا لا يبحث في المشتركات التي يمكن أن تصنع أفقاً حوارياً بين الحضارات، إنما يبحث عما يؤكد الفرقة والتمايز والتباعد، واعتبار الغرب المتقدم الوحيد، أو ممكن التقدم الوحيد، والآخرون خاصة الشرق الإسلامي، يجب أن يبقوا في حالة تبعية لاستعصاء التقدم والحضارة في بلادهم، وهذه نظرة تقابل نظرة المفكرين الذين نشير إليهم والذين يؤكدون حوار الحضارات عبر التاريخ.

[4]- برنارد لويس، أين يكمن الخطأ؟ صدام الإسلام والحداثة في الشرق الأوسط، ترجمة: عماد شيحا، دار الرأي للنشر، ط 2006/1

[5]- راجع، د. مصطفى بوهندي، مثلاً: التأثير المسيحي في تفسير القرآن، دار الطليعة، ط1/ 20014

obeikandi.com

"بينما يمكن أن تختلف الثقافات في النمط في التعقيد، فثمة مغالطة إنشائية في التسليم بأن الأفراد في الثقافات في النمط وفي التعقيد، فثمة مغالطة إنشائية في التسليم بأن الأفراد في الثقافات الأقل تعقيداً هم بشر أقل اكتمالاً أو أقل قدرة على التطور مقارنة بالأفراد في الثقافات الأكثر تعقيداً" هذا ما تقوله ليندا لانغ.(6) وبما أنها تقول إن الغرب باعتباره أنشأ الحضارة الأكثر تعقيداً أو تقدماً من حقه، أو أنه يرى أنه متفوق على الآخرين الذين لم يستطيعوا إنتاج مثل هذا النمط الحضاري، أو أن نمطهم الذي أنتجوه أقل تعقيداً أو أبسط، ما يعني أنهم بشراً أقل حظاً في التقدم، ولا يستطيعون مضاهاة الغربيين، وهذه نظرة فوقية في صلب الحضارة الغربية، حكمت نظرة الغربيين لشعوب العالم.

ما يؤكده السياق الفكري، هو ما أكده الكتاب سابقاً، الحضارات تتحاور، عدا ذلك الفكر المرتبط بالمصالح الإمبريالية ويؤسس لها، فإن خدمته لهذه المصالح تجعله يؤكد الصدام بين القوى الراعية لهذه المصالح في هذه الحضارة مع غيرها، حتى لو خسر الكثير من مصداقيته الفكرية. ومن أبرز المقولات التي عبرت عن عدوانية هذا الفكر! "الفوضى الخلاقة"، إذ أن مثل هذه الفوضى عندما تثار وتتخبط بها الجهات التي تعانيها، فإن الأكثر قوة هو القادر على استثمارها وتوجيهها لصاله. وبما أن الغرب هو الأقوى فهو القادر على تشكيل العالم عبر إثارة الفوضى في الأجزاء التي يريد إعادة صياغتها. وهذه المحاولات جارية على قدم وساق في منطقتنا العربية. وهذه نظرة قد يستمدها المرء من عمل الحداد الذي يشكل الحديد بعد إحمائه إلى حد الليونة، ومن ثم يجري طرقه وتشكيله.

2.السياق التاريخي

من الصعب فصل الفكر عن التاريخ، فالفكر يتحقق تاريخياً، أو تحقيبياً، إضافة إلى تحققه في الواقع المنتج فيه، من هنا يكون التاريخ هو معمل الباحث في العلوم الإنسانية الاجتماعية، مثلما هو المختبر الموضع الذي ينتج فيه الكيميائي أو الفيزيائي أبحاثه ويثبت صحة فرضياته التي يمكن أن تتحول هناك إلى نظريات. ولا

يمكن لباحث أن يبرهن على العلاقة بين الحضارات إلا من خلال الحراك الذي خاضته عبر التاريخ، ثم إن هذا الحراك هو الذي جعلها حضارات متعددة، لا واحدة. وهو المؤكد لحوارها أو صدامها. إن التجربة التاريخية، أو المعاناة الشخصية في حقبة تاريخية معينه، تجعل فرداً أو جماعة تكتسب خبرة ما، أو يصلون إلى نتائج عبر هذه التجارب، من هنا ينقل عن العالم الصيني "ين فو" المتوفى 1921 والذي قضى كل حياته مؤمناً بالغرب إلى أن كفر به في آخر حياته، وقال قولته الشهيرة: "إن الذي حققته شعوب الغرب في القرون الثلاثة الماضية، تم بناؤه على أسس أربعة: أن تكون أنانياً، أن تقتل الآخرين، أن تكتسب أقل ما يمكن من النزاهة، أن تشعر بأقل ما يمكن من الحياء". ولابد أن للتاريخ حكمه وبصمته على ما قاله فو، بعد أن عبر عن خبرته بالغرب وما يمكن أن توصل إليه هذه الخبرة من نتائج، ومن المؤسف أن الحصيلة كانت بهذه المرارة التي تؤكد أو تساير المواقع التي ينطلق منها هنتنجتون أو المحافظون الجدد. سيقول قائلون أن هناك ظلماً يلحق بهؤلاء، أو اتهامات باطلة، لاكن ما يبدو حقيقة فعلاً، هو أن الإنسان يجد نفسه مقصراً مهما أشار إلى عنصرية الغرب وسوء نظرة هؤلاء الذين يصنعون فكرة السياسي أو سياسته المباشرة تجاه الشعوب. فهذا وليام بينيت، أبرز المحافظين الجدد، ووزير تعليم في عهد ريغان، وامبراطور المخدرات في عهد بوش الأب، خاطب بوش الابن قائلاً: "إذا كان عليك تخفيض معدل الجريمة أيها الرئيس، باستطاعتك فعل ذلك، إذا كنت تريد تحقيق الهدف المرجو فبإمكانك سن تشريع بإجهاض كل طفل أسود في هذه البلاد، بذلك ينخفض معدل الجريمة في بلادك".(7) وهذا الفكر والممارسة التاريخية العنصرية الإقصائية إلى الاستئصالية لما ليس غربياً أبيض يتلاقى مع مصطلح "القطرة الواحدة" وهو مصطلح تاريخي أمريكي في العامية الأمريكية يعني أن يوضع في عدد السود كل من يحمل في عروقه ولو قطرة واحدة في دماء السود، كما تؤكد ليندا لانغ في مقالها السابق. يجمع المثقفون والباحثون العرب على أهمية الحوار وضرورته وأنه لا أحد يستطيع في هذا العالم أن يعيش منعزلاً، بالتالي فالحوار دائم لتطوير الحياة كما يرى د. حسين جمعة، لكن للحوار بين الحضارات قواعده وأسسه، فهي قد عرفت أو أنتجت الآليات التي تم بها

أو من خلالها هذا الحوار، وهو مضمون ما أكده كتاب كثر، في حين أن ما يجري على موائد الساسة ورجال الدين والمثقفين ليس حوار حضارات بل حوار أشخاص كما يؤكد محمد راتب الحلاق، في حين يؤكد د. حسن حميد أن الغرب حسب قناعته غير مستعد للتنازل عن شيء من هيمنته على العالم ما يجعل الحوار عقيماً أو غير فاعل.(8) هنا يمكن الوقوف عند فكرة تؤدي إلى مقولة حسن حميد، وهي أن الحضارات كما أرى لا تقرر أو ليس من مشاريعها أو خططها التنازل عن هيمنتها، والهيمنة ليس احتلال بلاد فقط، بل هي سطوة فكرة وثقافة وحضارة واستلاء على دور سياسي واقتصادي وسبق حضاري في كل المجالات وقوة عسكرية باطنة تدعم ذلك، ما يعني أن الحضارة لا تتنازل طوعاً أو بالاتفاق، وهي لا تستأذن سابقاتها حين تهيمن على الفضاء العالمي بقوتها الفتية الصاعدة، مزيحة سابقاتها عن مواقعها ومالئه الفراغ. وهنا نؤكد مجدداً أن كل حضارة تحتفظ من سابقاتها بكل ما يمكن الاستمرار متطورة وتبني عليه دون أن تعود إلى نقطة البداية في مسيرتها، وهذا يؤكد أن حضارات العالم هي شركة بين كل من أثبت دوراً هاماً في البناء الحضاري الإنساني تاريخياً، وصولاً إلى عصرنا، حيث تبدو حصة الغرب كبيرة. من القضايا التي برزت تاريخياً وساهمت في التشنج الفكري، هي وضع الإسلام عن قصد أو غير قصد مقابل أو في مواجهة الآخر (المسيحية) من قبل دارسين إسلاميين وغربيين، وكأن الغربيون يريدون تأكيد تفوقهم ودونية الآخر، في حين رأى الإسلاميون أنهم بذلك يمكن أن يساهموا في تدارك الفوات الحضاري ورد الاعتبار لحضارتهم، وكان هذا خطأ كبيراً تجلى في اختيار لحظتين غير متكافئتين ليتم صنع التقابل بينهما. فالحظة الغربية (المسيحية) هي الحداثة ومنجزاتها، بينما اللحظة الإسلامية المكافئة أو التي يمكن أن تبدو ندية في نظر أصحابها، هي تلك التي مرّت منذ قرون عدة، لأنه لا تجانس بين اللحظتين أو المحطتين، الامر يجعل إبراز سبق أو تفوق إحداهما للأخرى ممكناً. لنلاحظ المثال التالي، الذي يبدو كدعابة مرة، يرى د. أحمد الكبيسي في حديثه على قناة دبي، أن الغرب فشل في حل المعضلات التي تخلقها حضارته الحديثة، ولو شاء حلها فعلاً لوجد ذلك ممكناً في المنهج الإسلامي أو الثقافة الإسلامية.

فمن القضايا المستعصية مثلاً، حل مشكلة ازدحام المرور التي أعجز عن حلها الغرب، ولو أنه اتبع النهج الإسلامي لوجد الحل في طريقة تناول الإسلام لآداب الركوب والمرور في حواضره. وهنا يبدأ انسداد وحمق هذا العقل الإيماني الذي يريد أن ينسب كل تقدم إلى الإسلام مقابل تخلف الغرب وعجزه حتى لو بدا ذلك كاريكاتورياً مضحكاً، وبدل انتقاص الغرب والسخرية منه يبدو أن البديل الإسلامي هو موضع السخرية نتيجة تعسف العقل الإيماني المرتبك.

فركوب الدواب في المدن أو الحواضر الإسلامية أو في الطرق البرية والصحراوية، وسهولة حل المشكلات المتولدة عنه، هي في مقارنة عند الدكتور الكبيسي مع ملايين السيارات المتدفقة في شوارع المدن الكبرى في العالم، ويمكن من وجهة نظره تطبيق أسلوب المعالجة للمشكلة الواحدة في نظره، غير منتبه أو معترف بالتغيرات البنيوية والفوارق التاريخية العملانية الحاصلة عن منهجين أو وضعين متناقضين لحضارتين مختلفتين في الأسس والمعطيات تاريخياً.

إذ لا يصح أن تقارن نصوصاً عقدية بفلسفات، ولا تكنولوجيا حديثه بتراث أو عادات أو معطيات طبيعية. إن عدم استيعاب القطيعة التاريخية التي بلورتها الحداثة مع القديم في الغرب، وعجزنا عن ذلك، أبرز ضرورة وجود أسلحة جديدة لردم الهوة ومواجهة التحديات التي أبرزت عجزنا عن فعل ذلك، وبروز تحديات متجددة تحتاج إلى أسلحة غير قديمة. و"مما زاد الأمر صعوبة في تطبيق ظواهر المدينة الغربية في الشرق أنها نشأت بالتدريج في الغرب، واتصلت كل الاتصال بتاريخه وأحداثه وبيئته الطبيعية والاجتماعية، ثم جاءت إلى الشرق دفعة واحدة من غير تمهيد، ودخلت على عادات وتقاليد مواصفات موروثة تخالفها كل المخالفة، فكانت المنازعات شديدة والصدمة قوية" كما ينقل عبد الإله بلعزيز عن أحمد أمين.(9) لقد بدا العالم في عجلة من أمره في العصر الحديث، لم يعد أحد يعطي الأمور وقتها اللازم ليظهر أثرها، الجميع مثلهم مثل التكنولوجيا في حالة تسارع لإظهار الآثار التي تتركها الحضارات ببعضها. لقد نسي الجميع أن الحضارات يمكن أن تؤثر ببعضها تأثيراً يبقى على الأيام إذ هي أعطيت الفرص والوقت اللازم دون تدخل

مباشر من قبل أجهزة إرادوية، مع أنه لا شيء يجري بدون نشاط البشر وحراكهم. ها هو د. ممدوح خسارة يقول: "ويذكر أن الدراسات اللغوية تبين أن أكثر من نصف اللغة الإنكليزية ليست إنكليزية الأصل، وأن أقل من نصف كلمات اللغة الفرنسية من أصل لاتيني، والباقي من أصول أخرى" ويتابع: "ولم تكن اللغة العربية لتشذ عن هذا القانون اللغوي العام ويقدر باحثون معاصرون أن العربية قد أخذت من اليونانية/250/ كلمة ومن اللاتينية/277/ كلمة. كما أخذت من الفارسية/1400/ كلمة، ومن التركية/250/ كلمة. وأخذت حديثاً من الإيطالية والإنكليزية والفرنسية. وهذا التقارب اللغوي من أوضح آثار التقاء الحضارات واحتكارها".(10) وإذا كان ما أشار إليه خسارة هو فعل تلاقح عبر الأيام والحقب التاريخية، فما لا شك فيه أن مثل هذا التأثير في عصرنا لن يأخذ كل هذا الزمن الطويل لنقل أثر حضارة إلى أخرى، خاصة والحضارات تقاس قوتها وضعفها بقدراتها التكنولوجية إلى المصطلحات والتعابير المرافقة والدالة على تفاصيلها وطرائق استعمالها، وبما أن التكنولوجيا أصبحت عالية الانتشار سريعة الانتقال، فإن ما يرافقها من مصطلحات، بل وعادات أو وضعيات وحراك ينتقل معها لزوم دقة الاستخدام وفاعليته. لقد مارس الأوروبيون العنف على جميع الشعوب التي استضعفوها، مثل الهنود الحمر، فقد كان شعار أوروبا على لسان المستكشفين الجغرافيين "ذهبك في مقابل إلهي، أعطني الدراهم وإليك المطلق، إنني أنهب ولكنني أهدي للحق" كما يقول ريجيس دوبريه، وقد كان حلم البابا من دعمه لكشوف وما تجنيه من مال، هو استخدام المال المتحصل لاسترداد الديار المقدسة. ومن أجل ذلك أوجدوا وطوروا النظريات الفلسفية، ووضعوا التحليلات الفكرية والعلمية المنسجمة مع المصالح التي يسعون إليها. فقد تمسكوا بنظرية الكيوف مثلاً، وهي التي ورثها أرسطو عن أبقراط وطورها، وتقول أن الأوروبيين شجعان غير أذكياء، وشعوب آسيا ذكية تنقصها الشجاعة، واليونانيون شجعان وأذكياء معاً. لكن هذه الكيوف لم تبق كما هي، فبعد قليل أصبحنا نجد في الفكر الأوروبي دونية الشعوب التي تريدون غزوها لنلاحظ أن مونتسكيو تحدث عن أن التعارض قدر طبيعي بين أعراق الشرق وأعراق الغرب، وهيجل أكد دونية العرق الزنجي،

وحكم على الشرق بالثبات والسكون والذهول الدائم، وسار على النهج ذاته رينان، وزاد عليه غيره مثل غوبينو. ثم جاء رجال دين لدعم هذه المقولات العنصرية، فالأب توماس أورتيت، أحد الآباء الدوميكان، قال عن الهنود الحمر! "يمكنني التأكيد أن الرب لم يخلق قط جنساً يفوقهم ابتلاء بالرزائل والخصال الحيوانية" وكل هذا هدفه صناعة الجرارات لنهب خيرات هذه الشعوب. إن خلاصة الفكر الأوربي في هذا الجانب، هي نسبة الفضائل جميعها للأوربيين، مقابل نسبة الرزائل جميعها للشعوب الأخرى المراد غزوها، وفكر غوبينو مثال لذلك. إنها المصالح التي تجعل الفكر تابعاً يختلق المبررات، ولهذا يقول كمال غبريال: "لماذا نعجز عن استيعاب أنه لا توجد بين الشعوب عداوات وصداقات دائمة، وإنما مصالح بعضها دائم وبعضها متغير، يترتب عليها علاقات، تأخذ أحياناً بشكل العنف والصدام، وأن تاريخ الإنسانية يؤكد حقيقة أن الصدام - مهما طال - لابد أن ينتهي إلى الحوار، الذي هو الطريق الوحيد لإقامة أبنية جديدة تحقق للإنسان طموحه في حياة أفضل؟!"(11)

هذه الاستنتاجات والأحكام هي ما أدت إليه الحركة التاريخية للشعوب وعلاقاتها، والأهم القدرة على استنتاج المعنى من كل حركة تاريخية ومعرفة ما وراءها حقيقة، لا المعلن فقط. إذ "الصراعات السائدة في العالم تدور في المقام الأول حول المصالح المتعارضة، فالصراعات قد تدور بين طبقات وشرائح اجتماعية مختلفة داخل الدولة نفسها...لا يوجد أساس علمي للزعم بأفضلية حضارة على أخرى... النظرية أخذت بفكرة الصدام وأهمي بديل الحوار بين الحضارات"(12)

إن رصد الحركة الاستعمارية الامبريالية في العصور الحديثة تؤكد كل ذلك، فلو سألنا أنفسنا، على أية أرضية حضارية من تلك التي يحدد هنتنجتون جرى توجه الولايات المتحدة الأمريكية لاستعمار الفلبين أواخر القرن التاسع عشر؟ وما الفرق بين إندونيسيا تحت حكم سوكارنو وإندونيسيا تحت حكم سوهارتو؟ لقد بقيت إندونيسيا إسلامية الطابع حضارياً، أي لم تكن كل الضحايا التي دفعتها إندونيسيا (نصف مليون ضحية) نتيجة صدام حضاري، لكن هؤلاء الضحايا من

خيرة أبناء البلاد ومن أفضل الكوادر اليسارية، خدمة للإمبريالية الأمريكية في الحد من انتشار الشيوعية، حتى لو كان في ذلك خراب البلاد وفناء العباد، ومن أجل ذلك نظمت المخابرات الأمريكية الانقلاب الدموي على حكم سوكارنو الوطني. وعن هذا يتحدث طويلاً نعوم تشوفسكي. ولم يكن هناك حضارتان تتصادمان. ومن الشواهد التي قدمتها الأحداث أخيراً هو كذب الادعاء بصدام الحضارات، علاقة إيران بالغرب، فإيران إسلامية قبل الثورة في أيام الشاه صديق الغرب، وإسلامية بعد سقوط الشاه ووجود نظام حكم آخر، لم تختلف هويتها الحضارية، فلماذا اختلف موقف الغرب منها؟ أليس لأن مصالحه هي التي فعلت ذلك، ما يشير إلى تهافت وسقوط المزاعم الحضارية في صناعة الاصطفافات بين الإسلام والمسيحية الغربية؟ وهكذا فإن مصالح أمريكيا هي التي أسقطت حكومة مصدق 1953 لا الصدام الحضاري. لقد كانت المصالح هي التي قادت الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن للقول: من ليس معنا فهو ضدنا. وقد ورث هذا التعبير عن هتلر الذي استمده بدوره عن نيتشه.(13) إنه الفكر الذي يستلهم المانوية، فبوش يضع نفسه دائماً في مواقع الخير والأخرون ممن ليسوا معه في مواقع الشر إنها ثقافة النكد "المعضدّيّة" كما أوضحتها في بحث قيد النشر. إن نفي الخيرية عن الآخر واستبعاده يجعل خيارات القوة ممكنة الاستثمار في توجيه الضربة الاستباقية بتوظيف "المعضدّيّة" حيث يكفي أبلسة أية جهة بإعلان أنها ليست معنا، وباتهامها بما لا يجوز فعله صدقاً أو كذباً كما حدث في العراق، كي يسهل تبرير ضربها وتدميرها وإيقاع ملايين الضحايا، ترجمة لعداء استعير له عنوان "صدام الحضارات" زوراً أو بهتاناً، وبزريعة القضاء على أسلحة التدمير الشامل الكاذبة.

3.السياق الواقعي

الواقع الذي نعيشه في العالم والوطن العربي يتفق مع ما قلنا عنه إنه أفكار قوية حول الموضوع، ويدعم الاستنتاجات التي وصلنا إليها في البحث، وهي أن المصادمات التي تحصل تؤدي إليها المصالح، حيث نجد الفكر الاستعماري الاستحواذي لم يتبدل، ما يتبدل هو الأساليب والأدوات المتجددة والتي تستفيد من تقدم العلوم، تطبيقية كانت أو إنسانية. من أبرز المستجدات التي طرأت وجعلت الحراك متسارعاً والأحداث طازجة في تفاعل الناس معها، هو التكنولوجيا الحديثة في مجال الاتصالات. وربما كانت مشاهد الحراك العام في بعض الدول العربية، خير شاهد على قوة وتأثير هذه التكنولوجيا. فما إن بدأ الحراك (الثوري) في تونس حتى كانت أخباره وتفاصيله والتحليلات حوله، تصل إلى جميع العالم في اللحظة والتو. وهكذا في مصر، حيث نجحت ثورتا البلدين في مرحلتها الأولى، أي تغيير نظام الحكم دون أن يعني ذلك الانتقال إلى المرحلة الثورية الحقيقية وهي تغيير أوضاع الشعوب، وهي المهمة الأساسية لكل ثورة، وهذا الذي لم تنجح فيه بلادنا سابقاً مع تعدد الثورات وبقاء الواقع فاسداً، حيث كلما جاءت ثورة أو حركة، فإنها تمحو ما فعله من قبلها خيراً وشراً وتعلن بداية تدشين التاريخ، فيحرم البلاد من تراكم الخبرات ومتابعة الأوضاع من حيث وصلت وهذا ما أوضحته مراراً تحت عنوان "الثورات المتوالية بين الحاجة والإنجاز". وإذا كان من المبكر تقييم التغيير الذي يتطلب وقتاً أطول، والذي لم تبدأ تباشيره الفاعلة، فلا بد من الإشارة إلى الذهول الذي أصاب العالم، والعرب خاصة، حين لم يملكوا التريث في التعبير عن الإعجاب بهذا الحراك، ولا نزال نذكر الجماهير في دمشق وغيرها من المدن السورية والعربية، كيف تفاعلت مع الحدث ونزلت إلى الشوارع معبرة عن فرحتها عند سقوط النظام في مصر. إن ما أتاحته تكنولوجيا الاتصالات من قدرة على تداول الأفكار والأخبار وسرعة انتقالها كما الاستجابة لها سلبياً وإيجابياً، هو المتغير الذي أبرز سرعة الإنجاز أو ساهم فيها، حيث أن هذه التكنولوجيا قد ساهمت في تمكين الملايين م النزول إلى الشوارع في وقت واحد، فقد وصل عدد من كانوا في شوارع مصر في وقت واحد حسب بعض التقديرات إلى خمسة وثلاثين مليون شخص.(14) وفي محاضرات عدة تحت عنوان "العالم ليس قرية واحدة" كان

آخرها خلال الأسبوع الأول من شهر نيسان 2011 في مدينة القصير التابعة لحمص قبل أيام من بداية الأحداث فيها خلال الحرب السورية، كان بعض الناس يصدمون بعنوان المحاضرة، لأننا تعودنا الاستسلام لما يمليه علينا أساتذتنا الغربيون، فكانت مخالفة مقولة الإعلامي وعالم الاجتماع الكندي ماكلوهان: "العالم قرية واحدة" أو قرية صغيرة، هي من أعمال السفه والنكد وحب المخالفة للرأي الحصيف في نظر بعض المحاورين، وكانت بعض الحوارات كأنها تقول لي من أنت لتعارض هذه المقولة وصاحبها العملاق؟!

لقد كنت أبين - وهذا له علاقة وثيقة بموضوع الحضارات، حوارها وصدامها - أننا إذا أخذنا مفهوم الوسائط، وسائط الاتصال الحديثة التي أصبحت قادرة أن توصل أطراف العالم بعضها ببعض صوتاً وصورة، وتنقل الحدث لحظة وقوعه، فهي ترافق القذيفة من خروجها من فوهة المدفع، فتصورها في مسارها إلى الهدف وتصور انفجارها والناس يشاهدون الخراب والدمار والدماء ويسمعون الآهات والأنين وتفجعات المفجوعين، مثلما تنقل فعل الطباخ (الشيف) وهو يطبخ طبق اليوم حيث ترافقه السيدة في أي موقع أو منزل في العالم وهي تصنع ما يصنع، فتقدم الطبق ذاته لأبنائها، ويأكل الناس على البعد بينهم ذات الطعام، ونحس عندها أن العالم فعلاً قرية واحدة، كل شيء فيه منظور لأبناء العالم مثلما يرى أبناء القرية الواحدة ما يجري في قريتهم.

وعلى هذا المستوى أنا مؤمن أن العالم قرية واحدة. لكن ألا نرى أن القوى الإمبريالية مالكة التكنولوجية، قد جعلت العالم عوالم لا حصر لها بدل جعله قرية واحدة؟ لقد زاد تشتته وضعف تشابهه وتماسكه واللحمة بين الأشقاء فيه، وبعد أن كنا في عالم أول وثان وثالث، أصبحنا في عوالم لا حصر لها. وبدل القرية الواحدة أصبحنا ملايين القرى التي لا تشابه بينها. أبناء القرية في عرف كل أبناء القرى في العالم، يتشابهون، يتضامنون، يتعاونون، يتقاربون، ويتفاعلون ويتحابون ويتحاورون مثلما يتخاصمون ويتشاحنون ثم يعودون عن خصامهم ومشاحناتهم. فما هذه القرية التي لا يعرف أهلها سوى التناحر والصدام سواء بالأسلحة المدمرة

والعنيفة أو بالمجابهات التجارية أو بنهب الأموال والاستيلاء على الأسواق أو بأحداث الأزمات المالية المدمرة والتي تسهم في نهب الشعوب وتجويع البشر؟ إنه عالم لا يتردد القوي فيه أن يقوم بأي عمل مهما كان خسيساً، حتى ضد المقربين منه، إذا كان يحصل من خلال ذلك على فائدة، أو يتوقع الحصول، والدليل على ذلك ما نشره موقع ويكليكس وآثار ضجة عالمية، وما آثاره فضح روبرت سنودن خبير المعلوماتية عن تجسس الولايات المتحدة على أقرب المقربين من حلفائها وأصدقائها. بالتالي هل يصبح ابن مدينة نيويورك مثلاً، من القرية ذاتها التي يعيش فيها أفريقي بفتات على الأعشاب أو التمار التي يلتقطها أو على يرقات الحشرات، بمجرد أن تزود كل منهما بجهاز اتصال يوصلهما ببعضهما صوتاً وصورة؟ هل يصبح الفلسطيني المقتول أو المسجون أو المهجر من أرضه أو من سجون العدو المستولي على بلاده، ابن قرية واحدة مع سجانه أو الجندي الإسرائيلي الذي يكسر عظامه ويطلق عليه الكلاب البوليسية ويقطع أشجاره ويمنعه من العودة ويصب عليه قنابل الفوسفور؟ هل الطيار الأمريكي أو الغربي الذي يستخدم أعقد منتجات التكنولوجيا وهو يرمي قذائفه على شعب العراق أو ليبيا أو أي شعب آخر مثل ما فعل في فيتنام وغيرها، هو ابن قرية واحدة مع ضحاياه وهو يشاهدهم كيف يموتون؟ أو هل من تقتله قذائف الطائرة بدون طيار ذات التكنولوجيا الرفيعة، ابن قرية واحدة مع من يرسل هذه الطائرة لقتله؟ هل تراجع مستوى الفقر أو المرض أو الجهل أو التعصب والتخلف وغير ذلك من العلل بسوية واحدة في كل بقاع العالم؟ هل يرضى الأوربي والأمريكي أن يوضع في ظل المعايير ذاتها مع شعوب أفريقيا وآسيا التي لا تزال تعاني الإعاقة والفقر بفعل نهبها من قبل هذا الأبيض الأوربي؟

كثيرة هي التحليلات التي تثبت أن العالم ليس قرية واحدة، وأننا سرعان ما ننخدع بما يقوله الغرب لنا، لأن فعل الانبهار للغرب سابق لعمل العقل في تحليل ما يأتينا منه. ومن هنا نشير إلى أن الحراك الثوري العربي - مع اختلاف الباحثين والمحللين على ثورية الحراك وعلى تسمية ربيعاً - قد أثرت فيه التكنولوجيا الحديثة للاتصالات سلباً وإيجاباً. وهنا يمكن أن نقف على آراء المتخصصين في الموضوع،

فهذا آرثرآسابيرغر، يقول: "أصبحت الأجهزة الرقمية التي نستخدمها ذات قوة متزايدة، وأصبحت قادرة على ربطنا بالأخر بطرق رائعة، ولكن في الوقت نفسه، يبدو أنها تعزز نوعاً من الفردانية الفائقة، وعدم الشعور بالانتماء إلى الجماعة" ويتساءل: هل الناس أقل قلقاً في عالمنا الجديد أم أكثر قلقاً؟ هل لديهم وقت أقل لأنفسهم ولأحبائهم، أو لمجتمعاتهم المحلية، أم هل ليدهم المزيد من الوقت؟ ثم ينقل عن باحثين الثقافة الأمريكية مسألة احدار الجماعة، وضعف المؤانسة الاجتماعية، وأزمة المدينة، واختفاء الحفلات والنشاطات الاجتماعية في المجتمع الأمريكي، وانسحاب الأمريكيين من الحياة الجماعية...الخ.(15)إذا كانت هذه التكنولوجيا وهذه الثقافة، تفتت المجتمع الواحد، فهل ستكون قادرة على جمع شعوب العالم وجعلها تتلاحم تلاحم القرية الواحدة؟ أو هل يصبح ما وصل إليه المجتمع الأمريكي من تفكك كما يقول بيغر،هو النموذج الذي تريد أمريكا تعميمه، ثم نقول أن العالم قرية واحدة؟!هذا الواقع بإيجابياته التواصلية التي تفوق الخيال قدرة، داهم مجتمعاتنا العربية الغارقة في تخلفها وعلاقاتها الانسدادية وفساد واستبداد أنظمتها السياسية، وضعف تطورها الاجتماعي والاقتصادي والتقني، والأمية المنتشرة فيها على مستوى القراءة والكتابة مثلما هي على مستوى التكنولوجيا المعاصرة، فيها قلة متنورة متعلمة طامحة، ومنفصمة عن غيرها أحياناً، وكثرة لا تزال تسأل الشيخ عن حكم قتل حشرة الفراش هل هو حلال إم حرام، في الوقت الذي يقتل أحدهم أخاه بتهمة الكفر، كما ورد عن ابن عمر عن ما سألوه عن ذلك بعد قتل الحسين. هذه الكثرة ليس لديها من استعداد للحداثة سوى طموح تصنعه عدوى اللحاق بشعوب العالم، أو الرغبة في ذلك، دون استعداد أو حيثيات ضامنة لنجاح الشعوب في الانتقال درجة على سلم تطور العوالم وترتيباتها.

لا يصح أن ننصح العرب في أقطارهم ألا يطمحوا لتغيير واقعهم واللحاق بالشعوب المتقدمة، من هنا كان فرحنا عندما بدأ الحراك الثوري في تونس وانتقل إلى مصر. قد شعرنا بأن الشعوب هذه المرة هي الفاعلة، والتحول إلى الحراك واستعادة النشاط

والخروج من الجمود القاتل من أجل تغيير واقعها الراكد دون أن تستأذن أحداً، أو تصبر بعد ذلك على واقعها المرير وأنظمتها الفاسدة.

وإذا كانت تونس ومصر قد عبرتا المرحلة الأولى من الحراك بنجاح، فهما لا تزالان في حالة تخبط، وصراع القوى الداخلية في كل منها، لا يشير إلى أقرب استقرارهما، خاصة أن كلاهما مفتوح على المؤثرات الخارجية بفعل ارتباطات القوى الاجتماعية والسياسية بقوى أجنبية لا تريد لهذه البلاد الخروج من حالة التبعية. ربما يفسر هذا آراء بعض المحللين لهذه الأحداث وعدم اعتبارها ثورات حقيقية لأنها لا تمتلك مقومات الثورة. فهي حسب رأي سمير أمين: "أكثر من حركة احتجاج لكنه أيضاً أقل من ثورة"(16) في حين رأى د. محمد أحمد النابلسي، أنه: "لا يصح إطلاق صفة الثورات على التحركات الاجتماعية التالية للمحطة المصرية. حيث يفيد التحليل الاستقرائي للتحركات اللاحقة إلى كونها مجرد استمرارية لصراعات داخلية مزمنة ومتفجرة على مراحل".(17) وهو يرى أن هذه الثورات (التونسية والمصرية) أعادت للشارع العربي قدرته على الاندهاش، والتي هي قدرة عقلانية متطورة.(18) هذه الثورات كانت تتسم بعفوية انطلاقها والقدرة على التواصل بين الجموع النازلة إلى الشوارع، بسرعة تفوق سرعة التدبير الفكري والسياسي، وسرعة عمل القوى السياسية التقليدية أو القادرة على ضمان الإمساك بالأمور بعد الثورة. بعدما انتصرت وجدت نفسها دون قيادة موحدة قادرة على الفعل باتجاه ما يريده الثوار، وهذا جعل من التيار الديني (النهضة في تونس والإخوان المسلمون في مصر)،وهو في حالة تنظيمية جيدة، القادر على أن يكون في المقدمة، وهو ما أعتبره الكثيرون تراجعاً عن الثورة أو ردة فعل، لأن هذا الاتجاه كان عبر تاريخه تقليدياً رجعياً، ولم يكن ثورياً تغييرياً بالمعنى الإيجابي المستقبلي، أو فاعلية تنقل المجتمع والبلاد نحو أفق غير معهود، لارتباط فكر هؤلاء بما هو سلفي وبتراث التأخر أو الانحطاط، وقد ركب الثورة بعد انطلاقها وظهور بوادر نجاحها، ولم يكن من القوى الثورية التي بدأتها.

التبعية حالة متقدمة من حارات الصدام بين الحضارات، وليست بحال من الأحوال حالة حوار بينها، لأن الحوار يجب أن ترافقه النارية، أي أن تكون القوى المتحاورة متماثلة متكافئة في جوانب هامة وتسعى لاستكمال التعاون من أجل إزاحة عوائق التقدم في علاقات الجانبين، مما يعود بالخير على الجميع. لكن عندما تسعى قوى إمبريالية لإبقاء الشعوب مربوطة بعجلة حركتها السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، مستغلة ظروف البلاد أو بعض الانتماءات الداخلية أو مصالح بعض الفئات أو ضعف تطور البلاد اقتصادياً وتكنولوجياً، فإن هذه الحالة إبقاء للتبعية، لم تتوقف القوى الامبريالية عن الاستمرار فيها مباشرة أو عن طريق قوى إقليمية مثلما يبدو أثر التدخل التركي، أو الحرص على التأثير في كل من مصر وتونس وغيرهما، مع الأخذ بعين الاعتبار أن تركيا دولة أطلسية، وأحد اهتماماتها إرضاء حلفائها الغربيين واقناعهم بقربها منهم وأنها مؤهلة للانضمام إلى الاتحاد الأوربي، ما يجعل حراكها أو دورها في الحراك الثوري العربي مشبوهاً، وأحد مؤشراته إبقاء هذه البلاد في حالة تبعية للغرب، كل ذلك تحت شعارات براقة كالديمقراطية، أو أنها تريد إقناع الغرب أن الجهة الوحيدة المؤهلة لقيادة العالم الإسلامي هي (تركيا) باعتبار أنها الجار الأقرب لأوربا الذي أحرز بعض التقدم، والأهم هو المظهر الديمقراطي الهش، والجمع بين الإسلام والديمقراطية في ثوب "الحرية والعدالة"، الحزب الحاكم الذي ورث نضال الشعب التركي لتحقيق التقدم، مما يسمح بتطوير نفسه أنه التيار الإسلامي الذي صنع تركيا بصورتها الراهنة، ويمكن الوثوق به ليكون قاطرة العالم الإسلامي إلى الحداثة والديمقراطية بنمط تركي معلمن. وقد صحت أو كادت تصح خديعته للعرب والمسلمين في إبراز هذا الوجه المشرق بالوقوف مع الحق العربي وقضية فلسطين من خلال تمثيلية في مواجهة إسرائيل، لم يبق منها شيء، أراد استثمارها في توجيه الحدث السوري والقاء الأوامر أو التدخل السفيه فيه، لكن إسلاميته ومحاكاة ماضيه غلبت حداثته وافتضح دوره لدى الأطراف العربية المسلحة.

التدخلات الأجنبية السافرة المعلنة والخفية المستترة من قبل الغرب لتوجيه الثورات العربية أو التأثير على نتائجها، لا تدل على اقتناع الغرب بأن الحوار هو السبيل الأمثل لنقل الخبرات، ولا تزال مصالحه تدفعه لإبقاء حالة الهيمنة على الشعوب. ومن المؤسف أن تكون قدرات الأخوة العرب (المال والسلاح)، هي من أهم وسائل إخضاع هذه الشعوب للغرب وقواه الاستعمارية. وإذا كانت الأمور في اليمن مثلاً، قد بدأت وكأنها أخذت مساراً سلمياً بمساعدة الأشقاء ومن وراءهم، فليس الثمن أقل من ربط اليمن بعمله السياسي الغربية لاستدامة التبعية.

لكن الأمور قد أخذت مساراً آخر في ليبيا، ورأينا السلاح العربي والإسلامي في حالة تحالف مع سلاح الغرب في تدمير ليبيا. إنها الدولة الإسلامية، يدمرها سلاح الغرب بمشاركة السلاح العربي والإسلامي وبالمال العربي النفطي، والهدف ليس إخراج ليبيا من حالة الانسداد والتخلف السياسي والاجتماعي، أي من عالم الاستبداد إلى عالم الديمقراطية، بل إيقاع البلاد في حالة فوضى. إنها الفوضى الخلاقة التي تحدث عنها الفكر السياسي الأمريكي، ولتي يكسب فيها من يحسن إدارتها، وها هي قد طبقت في ليبيا وأصبحت مع نفطها في خدمة الغرب ومصالحه. وما يمكن قوله، إن مقولة صدام الحضارات لا تنطبق على ما جرى ويجري في ليبيا، فالصدام كان لخدمة الغرب ويمكنه من السيطرة. المشاركة العربية والإسلامية في الهجوم على ليبيا وتدميرها وتركها نهباً للعصابات المرتبطة بأجندات الغرب الذي أوجدها خدمة لمصالحه، لم تكن في حالة إقدام ولا إرادة للدفاع عن حقوق شعوب أخرى تعاني من استبداد الحكام مثلما كان يعاني شعب ليبيا الذي هبت لنجدته، وذلك لاختلاف الأوضاع والمصالح، وليس لاختلاف الانتماء الحضاري. ففي البحرين تم إهمال الصوت الشعبي المطالب بالديمقراطية، مثلما طالب بها أهل ليبيا، وكان صوت الشعب واضحاً قوياً غير عنيف، لكن جيران البحرين الذين انتصروا لشعب ليبيا المطالب بالحرية والديمقراطية، رفضوا اسماع الصوت البحريني المطالب بها، لما في ذلك لدول الجوار وحكامها من إحراج في أن تكون البحرين ديمقراطية في جوار لم يعرف سوى الحكم العشائري القبلي

الذي يستمد قوة وجوده من تراث القرون الوسطى والنظام البطريركي (الأبوي)، في ظل أدعاء الإسلام المصنع على الطريقة التي تخدم هؤلاء الحكام، والمفرغ من قيم الإسلام الحقيقية، ما يعني أن جزيرة ديمقراطية في البحرين قد تبدو ذات تأثير كارثي على أنظمة الحكم العشائرية في منطقة الخليج، لا تستأمن على تاريخ المنطقة ومستقبلها.

لماذا اختفى الحماس الغربي الاستعماري الإمبريالي عندما كان عليه أن يسمع صوت شعوب منطقة الخليج تطالب بالحرية والديمقراطية؟ إن في ذلك افتضاحاً وتكذيباً لتوجه الغرب نحو دمقرطة الشعوب ونشر حقوق الإنسان والدفاع عنها، ولو كانت مزاعم الغرب صحيحة لما تنكر لنداء الديمقراطية في مناطق الخليج، وهي المناطق الأكثر تبعية له، والأكثر حاجة للتحرر، فهذه الدول الصغيرة أو الكبيرة كانت تابعة تبعية كاملة لبريطانيا التي أوجدتها وأعطت حكامها فرصة حكمها، وكان اسمها "محميات الخليج" وحاميها بريطانيا الاستعمارية التي أوهمتها أنها مهددة، وقد ورثت أمريكا الأشراف على هذه المحميات أو المشيخات، وغضت وتغض الطرف والسمع عن نداءات الحرية من قبل شعوب هذه المناطق، ضداً على ما تعلنه من مبادئ، ما يبرز عدم صدقها، لأن نشر الديمقراطية والوعي بها بين شعوب هذه المنطقة سيحرم الإمبريالية فرص استغلال الثروات النفطية ومردودها. لذلك فإن أصوات شعوبها لا تسمع ولا يؤبه لها، بل أن أمريكا راغبة في إبقاء هذه الشعوب مقموعة، مع تنديدها بالقمع والاستبداد في مناطق أخرى تبعاً لمصالحها. وقد تثير الحروب والصدامات كما في سورية.

الإسراع لوضع الصوت الديمقراطي تحت الوصايا مثل ما حدث في اليمن، ثم برعاية تسمح للسلاح الأمريكي أن يقتل كما يشاء وأن يتدخل كما يشاء، وكان الجهد والمال الخليجي راعي التسوية التي أدارتها أمريكا تحت يافطة إنهاء النزاع، وهذا لا يمكن رفضه كي لا يبدو الرافض معادياً للسلام والأمن، لكنه في الحقيقة ترتيبات تسمح بإبقاء اليمن في التبعية تحت يافطة ديمقراطية لا يستساغ رفضها.

وإذا كان يسعى حكام الخليج ومن وراءهم من الغرب لأنهاء النزاع في اليمن بهذه الطريقة التوافقية، فإن ذلك لم يحصل في ليبيا، كما لم يعمل لأجله بصدق في سورية. فالواضح أن الغرب كان يرغب بمصير مختلف للحالتين يحقق له مزيداً من الدمار ودفع البلدين للتخلف، خدمة لإسرائيل والمصالح الغربية.وفي كل هذه الحالات لا نجد اختلافاً في الحالة الحضارية، إذ أن تونس ومصر والبحرين واليمن وليبيا وسورية، كما العراق والسودان وعمان والجزائر وغيرها، تنتمي إلى حقل الحضارة الإسلامية، ولو كان الصراع صراع حضارات يصل حد الصدام بينها، فلماذا لم يحدث مثل هذا الصدام في كل الحالات المتشابهة، ولم يقم الغرب بغزو كل البلاد أو تأجيج النزاع فيها، والانتصار لجهة ضد أخرى؟

عندما يكون لدى الدول المتقدمة، وهي في هذه الحالة أكثرها تأثيراً الدول الغربية ذات الإرث الاستعماري والتوجه الإمبريالي، أية نية لمساعدة الشعوب على تجاوز عقبات بنائها الحضاري الحداثي، فإن ذلك لا يكون بوضع العراقيل في طريق تقدمها العلمي والتقني والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، ولا بتوجيه الجيوش لتأديبها وتدميرها، من أجل إبقائها في حالة ضعف يسهل عليها نهب خيراتها واستتباعها، كما لا يكون ربطها بمحاورها كشرط من شروط مساعدتها. وفي حالتنا العربية لا يكون بالانتصار لما تريده إسرائيل من إبقاء دول المنطقة في حالة ضعف وتفكك وصراعات داخلية وإعاقة التنمية وانتقاص السيادة، كي تصبح إسرائيل سيدة المنطقة يخضع الجميع لها، ولقد دلت السياسات الغربية خلال القرن العشرين وما يليه أنها في خدمة المصالح فقط، وعلى رأسها إقامة وتقوية ودعم وحماية الكيان الذي أوجدته دول الغرب على أرض فلسطين، ولا يزال يسعى أن يؤمن له كل الدعم حتى لو فنيت الشعوب أو تم خوض الحروب، وليست حروب الخليج الامبريالية ضد العراق بعيدة عن ذلك، ولا ما يجري في سورية سوى حلقة في خدمة المشروع الإسرائيلي. عندما يريد الغرب مساعدة الشعوب فإن ذلك يكون أولاً بتمكينها من التنوير، وعالم الأنوار هذا كما تراه جاء من سلامة، هو خروج الأنسان من حالة العصور.. أي العجز عن ملكة الفهم واستخدامها.(19) وإذا مانت

أمريكا زعيمة جوقة العالم الحر كما يسمى، تطالب الشعوب أن تنحو نحو الديمقراطية، فإن ذلك يكون قبل كل شيء بتمكين هذه الشعوب من صناعة الديمقراطية محياً، أي بزيادة الوعي بها وبأهميتها، وليس باستيرادها مصنعة في الغرب، فالنمط الغربي خلقته المجتمعات الغربية كما يناسبها وحسب مقتضيات حياتها، ولا تكون بالانتصار لفئة يسهل ربطها بدولاب المصالح الغربية، وتدمير البلدان باسمها. فالمؤسسات الديمقراطية كما يراها المفكر عادل ضاهر، تلزمها شروط أهمها:

1 -الإرادة الجمعية الواحدة باعتبارها المصدر الأخير للسلطة.

2 -نفس الغرض متاحة للجميع، بمعنى حيادية الدولة.

3 -' عطاء كل مواطن حقه في ممارسة الحرية على أوسع نطاق.

4 -لا يجوز تجريد أي عضو من أعضاء الدولة من حقوق المواطنة على نحو تعسفي.

5 -تأمين إطار تعاوني تتوافر ضمنه الشروط الثمينة بحصول تفاعل اجتماعي.(20)

ليس هذا ما رهنت عليه التدخلات الغربية بشأن الشعوب التي هبت لتغيير أوضاعها، لقد كان جهد الغرب، ولو كان الأمر غير ذلك ما وجدنا وقوف أمريكا مع الإخوان المسلمين في مصر والنهضة في تونس والتنظيمات الإرهابية والإسلامية المتشددة المقاتلة في سورية، مع وضوح نهجها التدميري، وهي لا تترك مساعدة فصيل من هذه الفصائل إلا تنتقل إلى دعم فصيل آخر ليست أقل منه تطرفاً، وكأنها تقول نحن مع من يبدو أكثر أذية وتدميراً وأقدر على شد مجتمعه إلى الخلف ومنعه من التقدم والحداثة. وهنا تبدو حقائق رؤيتها لبلادنا وما تريده لها، خدمة لمصالحها. مع بعد الجهات المتصارعة عن الصراع المرتبط بانتماء حضاري.

obeikandi.com

الشروط والاعتبارات الديمقراطية ليست فيها انحياز لفئة ضد فئة، فلماذا نجد الأمريكي والغربي كالعادة، هو الذي أطلق التسمية - يصب في خدمة وتمكين جهة وطنية في أي دولة من الدول التي جرت فيها الأحداث ضد جهات أخرى؟ والملاحظ أن الجهة التي تنحاز إليها أمريكا، ليست بالضرورة هي الأكثر استنارة وحداثة، وهذا الانحياز يتغير ويتبدل حسب موازين القوى والمصالح، فقد كانت مع النظام المصري السابق للثورة، ثم مع الثوار بعد اتضاح قوتهم، ثم هي مع الإخوان المسلمين عندما وصلوا إلى الحكم، ثم هي تعلن وقوفها ضدهم أو مع العسكر ومن القلب على الإخوان. فأية مصداقية لهذه المواقف خارج منطق المصالح؟

في سورية كان واضحاً منذ سنوات أن أمريكا والغرب عموماً، يرغبان في تغيير نظام الحكم، كما أن الشعب السوري كان يرغب في الخروج من إعاقاته وإصلاح شؤون بلاده والخلاص من الفساد والتعثرات، لكن ما تريده أمريكا لم يكن من أجل إقامة سورية ديمقراطية خدمة لشعبها كما يريد، ولا من أجل احترام حقوق الإنسان، إنما لكي تكون مع غيرها في خدمة المشروع الأمريكي، دون الالتفات إلى مصالح شعوب المنطقة ورغبتها في التقدم والتنمية والسيادة الوطنية والتحرر، وفي قمة أهداف شعوب المنطقة العربية إحقاق حقوق شعب فلسطين في أرضه وإنجاز عودته والتوقف عن دعم عدوانية إسرائيل وحمايتها، بل وجعلها القوة المهيمنة في المنطقة. كان واضحاً أن أمريكا زادت شهيتها على ضرب سورية بعد غزو العراق، وإذا كانت سورية لم تحسب الحسابات السياسية للخطط الأمريكية كفاية، فلم تسعى لتفويت الفرص على أمريكا ومن تدفعهم للعبث بالداخل السوري، حيث لا يستطيع أحد رفض مطلب الناس بالحرية والديمقراطية باعتباره مطب حق دون حساب ما يحمله من شحنات تتمثل في إفساح المجال للتدخل الخارجي، في ظل مطالبات تبدو عفوية وبريئة يمكن استغلالها فتتحول إلى مغرضة مشبوهة. ولم يتم تلافي إمكان استغلالها، فكانت مسمار جحا الذي تسعى قوى الغرب لإيجاده.

كان قد ظهر كما نوهنا، أن أمريكا تريد تغييراً في سورية يخدم مصالحها، ولابد لذلك من فئات سورية تبدو مطالبها محقة تتطلب التدخل كما تعودت

أمريكا أن تفعل في بلدان العالم، وبدا المطالبون بالحرية في حالة مظلومية، أسرع الغرب أعالان مساندتها حقاً أو باطلاً، مع أن مساعدة المظلومين لا تكون بدفعهم وامدادهم لتدمير بلادهم، بل بتعميرها لهم إذا احتاجت إلى أعمار. ثم كان هذا الموقف بدفع قوى إقليمية تنتمي إلى الحضارة الإسلامية وإلى العروبة والجوار والأخوة، وكان مشوار النضال برفقتها طويلاً ضد الأعداء المشتركين، ما يبرز أن لا صدام حضارياً في سورية، ولا يصح أن يكون كذلك، كما أن الحراك فيها وفي الأقطار الأخرى لم يحمل سمات يسارية أو قومية.(21)

كيف يصح أن يقدم الدعم لبعض الشعب الذي يقاتل بعضه الآخر، ثم يقال إن ذلك خدمة للشعب السوري؟ إن هذا هو الدليل القوي على أن ذلك ليس خدمة لا لسورية ولا لشعبها، بل لمصالح المتورطين. إن التيارات الشعبية ذات المصداقية الوطنية، تحدد مواقعها المعبرة عن صحة توجهها، بحيث تكون في مواجهة أمريكا وضد فعلها في المنطقة، ولسان خال الجميع ممن لا يعرفون الحقد ويسعون لتطهير قلوبهم منه من يقول، من أراد التطهر من الحقد فإن ذلك يكون بالحقد على السياسة الأمريكية! يعرف السوريون جميعاً أن المصالح هي التي تحرك أمريكا والغرب عموماً، ومن لا يعرف، لا يليق به أن ينخرط في عمل سياسي أو فكري، ويبقى السؤال لماذا لم يتم العمل من قبل الجميع لتفويت الفرصة على من يريد العبث بسورية، بسد الثغرات الممكن اختراقها، وتعزيز اللحمة الوطنية في مواجهة آخرين متربصين لأذية البلاد، وهذا معروف منذ زمن؟!

ليس لأحد حق ولا مصداقية في إنكار الحاجة إلى الإصلاحات في عالمنا العربي، حيث لم تحسن السلطات إنفاذها، ولا الحق في إنكار حق الشعوب بتغيير أوضاعها الناقصة، أو تنبيه سلطات بلادها إلى ذلك، والعمل على تطوير النظم السياسية القادرة على حماية البلاد وتطويرها. لكن ليس من حق أية جهة أن تسعى لتمكين جهة خارجية من أذية وطنها وإخضاعه لإرادة خارجية، ولا إشاعة العنف.

إن أسوء ما يؤخذ على الحراك العربي الحديث خاصة في سورية، هو اعتماد العنف وسيلة، أو الانحدار إليه تحت أي ظرف، والاعتماد على التدخل الخارجي واستدراجه لضرب وتدمير البلاد من أجل تمكين فئة معارضة من حكم البلاد، كما حصل في العراق، دون تقدير العواقب والأثمان التي سيخلفها العنف والفوضى، **دون تقدير الأثمان المطلوبة لتسديد فواتير المساعدة الغربية أو الخارجية، وآثر ذلك على إيقاع البلاد في حالة من التبعية بعد إنهاكها وتركها غير قادرة على مداواة جراحها، مما يجعلها لا قيامة لها إلا بإنفاق عشرات السنين، وفي هذه الحالة يكون الجميع شركاء في إيصال البلاد إلى هذه الحال.(22)**

إذا كان ضرب سورية أو إنهاكها وتدميرها على خلفية موقفها من المشروع الأمريكي لإعادة صياغة الشرق الأوسط، فإن ذلك يحمل طابع المصالح لا طابع الصدام الحضاري، وفي كلا الحالين، أو من أية زاوية نظر إلى الموضوع، يجب ألا تتمكن أمريكا من إنقاذ مشروعها، بمواجهة من قبل الجميع. يشار إلى أن المؤلم في الصدامات إلى صلة في المنطقة العربية، أنه بدل أن تكون القدرات العربية ومعها الإسلامية موظفة ضد مشاريع الغرب لأنه يستهدفها جميعاً، نجد الكثير من هذه القدرات موضوعة تحت تصرف الغرب الذي يوجهها ويوجه مالكيها لضرب إخوتهم وشركائهم في الموقع والمشروع الحضاري. بدا ذلك في افغانستان ثانية بعد هجمات نيويورك، ثم في غزو العراق 2003 وفي ضرب ليبيا، والكارثة الأكبر في تدمير سورية كتتويج لفعل الصدم الغربي للعرب والمسلمين خدمة لإسرائيل والمصالح الغربية.

لم يتطلع المرتكبون في بلادنا على المحاسبة على أخطائهم وارتكاباتها. لكن عندما يتعلق الأمر بالثورات فيجب أن تكون الشعوب قادرة على محاسبة قياداتها عندما ترتكب الأخطاء تحت عنوان " المحاسبة الثورية" كي لا يتم ارتكاب الجرائم باسم الشعوب وتبريرها، والعودة إلى ذلك مرة بعد مرة. ومن أهم الكبائر التي يحاسب عليها إثارة العنف الداخلي أو الانجرار إليه، والتعاون مع الأجنبي ضد الوطن أو أي من مكوناته، لأن كلا الكبيرتين تخدمان أعداء الوطن.

هوامش

3 - برتراندرسل، حكمة الغرب، ترجمة: د. فؤاد زكريا، عالم المعرفة/364/ يونيو/ 2009 ص 183 - 184

4 - برنارد لويس، أين يكمن الخطأ؟ صدام الإسلام والحداثة في الشرق الأوسط، ترجمة: عماد شيحا، دار الرأي للنشر، ط 2006/1

5 -راجع، د. مصطفى بوهندي، مثلاً: التأثير المسيحي في تفسير القرآن، دار الطليعة، ط1/ 20014

6 -ليندا لانغ، القرابين المحروقة للعقلانية، ضمن كتاب: نقض مركزية المركز - الفلسفة من أجل عالم متعدد الثقافات - بعد استعماري ونسوي، تحرير: أوماناريان+ ساندراهاردنغ، عالم المعرفة/ 396/ يناير/ 2013 ج2 ص 111.

7 -د. خير الدين عبد الرحمن، الفكر السياسي عدد/ 43 - 44/ ربيع وصيف/ 2012 السنة/14/.

8 -راجع، الفكر السياسي، عدد/34 -35/السنة/11/ صيف وخريف/2009

9 -المعرفي والإيديولوجي في الفكر العربي المعاصر (ندوة)،مركز دراسات الوحدة العربية، ط1/ 2011 ص352

10 -د. ممدوح خساره، علم المصطلح وطرائق وضع المصطلحات في العربية، دار الفكر - دمشق ط1/ 2008 ص 238

11 -كمال غبريال، الأقباط والليبرالية، هفن للترجمة والنشر والبرمجيات، ط1/ 2009 ص 30

12 -د. عبد السلام علي نوير، الاتجاهات المعاصرة في دراسة الثقافة السياسية، عالم الفكر، العدد/ 1/ المجلد/ 40/ يوليو سبتمبر/ 2011 ص .39

13 -أ. د. ابراهيم أحمد سعيد، مابين الجغرافية السياسية ومخاطر الجيوبولتيك والعولمة، الأوائل للنشر والتوزيع، ط1 / 2006 ص 177+ 184

14 -راجع، حسن ابراهيم أحمد، أبيض وأسود في الحراك الثوري، دارنون ط1 / 2013

15 -أرثر آسابيرغر، وسائل الإعلام والمجتمع - وجهة نظر نقدية، ترجمة: صالح خليل أبو أصبع، عالم المعرفة/ 386/ مارس/ 2012 ص 134 - 135

16 -سمير أمين، ثورة مصر ومابعدها، الطريق/1/السنة/70/ صيف 2011

17 -د. محمد أحمد النابلسي، ثورات ملهوفة، دار التنوير،ط1/ 2011 ص 23 - 24

18 -المرجع السابق ص 204

19 -رجاء بن سلامة، الحداثة والحداد، ضمن كتاب: الحداثة والحداثة العربية، رابطة العقلانيين العرب+ دار بترا، ط1/ 2005 ص 303

20 -عادل ضاهر، أنا ديمقراطي، إذاً أنا علماني، المرجع السابق ص55

oberkandl.com

21 -راجع، حسن ابراهيم أحمد، اليساري والقومي في الحراك الثوري العربي، الطريق عدد/4/ سنة 72/.

22 -راجع، حسن ابراهيم أحمد، الليبراليون العرب واستحقاق الحرية، دار النايا+ محاكاة، ط1/ 2011

مقدمة

يقع الحديث عن الحضارات وعلاقاتها، تحت تأثير الرجّة الكبيرة التي أحدثتها مقولة ((صدام الحضارات))، وتقسيم العالم تقسيماً فيه الكثير من العسف إلى كتل متصارعة متصادمة، ليست بعيدة عن السياسات أو الأمنيات التي تقع في خلفية عمل قوى تجد من مصلحتها تعميم مناخ الصدام، ولقناعتها بالقدرة على إحراز النصر فيه.

الصدامات عبر التاريخ يصعب حصرها، لكن أغلبها معروف البداية والنهاية، (من ـ إلى)، كما هو معروف الأهداف المباشرة وغير المباشرة، المعلنة والمضمرة: المستندة إلى قيم الخير والحق والجمال أو المرذولة المستندة إلى الأطماع والمصالح.

الصراع مستمر في الحياة لا يتوقف، وليس من مصلحة الحياة ولا في خيرها أن يتوقف، كذلك ليس في خيرها أن يتحول إلى صدامات مدمرة، مع ذلك فهذه موجودة وكثيرة، وباعتبار أنها محدودة في الزمان والمكان، وكثيراً ما تؤدي إلى الحوار أو تتضمنه فإن ما هو خارج هذا الزمان وهذا المكان الذي يحدث فيه الصدام، هو مساحة للحوار. هكذا هو الواقع، وهذا ما نريد إثباته.

الصدام تقوده المصالح، ولا يعني هذا أن الحوار لا مصالح غائية تدفعه أو تقوده الحوار مدفوع بمصالح غايتها تأمين حياة أكثر يسراً وسهولة وطمأنينة وسلاماً، وهذه مصالح غاية في النبل والرقي كانت في صلب كل الأديان الكبرى الممتدة، كما في صلب المشاريع التي توخت إنقاذ الإنسانية من قبل الفلاسفة والمفكرين والقادة، أو نشاط الجماعات. والصدام مدفوع بمصالح أخرى تفوح منها روائح كريهة، روائح الأنانية واستغلال الأقوى للأضعف، واستخدام القوة والجبروت،

وتجيير جهد الفقراء لصالح الأغنياء. وحديث أرباب الصدام عن القيم والمبادئ، وتغطية أطماعهم وبطشهم بشعارات تفوح منها رائحة القيم الرفيعة، هي ترضيات إعلامية، قد تكون مشفوعة ببعض الفتات، هذه الأهداف والشعارات المعلنة أو المرفوعة كيافطات، تخفي وراءها كل ما هو خبيث وبشع، وهذا الم يعد يخفى على أحد.

إذن، حديث الصدام بين الحضارات والذي تدعمه ثقافات مختلفة، لا يصمد أمام شواهد التاريخ والواقع، أو لا يصمد أغلبه، وما بدا منه مصدقاً لصدام الحضارات، يحتاج إلى من يوضح حقائقه المستورة وأهدافه الخفية.

الحضارات لم تعدم الوسائل ولا السبل لتخليق قنوات لا حصر لها للحوار، حوارها كان ممتداً من يوم وجد الإنسان إلى اليوم، وبالتأكيد إلى الغد ـ بالرغم من أحلام العتاة ـ وهذا الحوار الممتد هو الذي أشار إليه أوتوشيروماتسور المدير العام لمنظمة اليونسكو في الكلمة التي ألقاها في الرباط في 2003/7/12، يقول: ((إن الحوار بين الثقافات والحضارات ليس في الواقع رغبة تندرج في سياق ((الأعمال الخيرية)) بل هو حقيقة تاريخية ينبغي على كل امرئ أن يعيها. فما من حضارة على الإطلاق إلا وأغتنت بالاتصال والتفاعل والتبادل مع الحضارات الأخرى، وحتى في إطار الحضارة الواحدة ذاتها، فإن الاسهامات هي أيضاً متعددة، وعلى هذا فإن الحضارات هي في حوار دائم ومستمر ـ لا مع الحضارات الأخرى فقط ـ ولكن مع نفسها أيضاً، لذا يمكن القول بأن كل حضارة هي بشكل عميق حضارات ذات ثقافة عالمية، وبالتالي لا يمكن تصنيفها في مراتب، أو اعتبار بعضها مقابلاً للبعض الآخر)).

هذا الحوار ليس حواراً سياسياً إرادوياً يجري حول الموائد وفي لقاءات السياسيين والقادة، ومع أن هذا هام جداً في تأمين المناخات المساعدة، وإزالة العراقيل من وجه القوى المتحاورة، فإنه ليس حوار الحضارات الذي نتحدث عنه. حوار الحضارات، عملت وتعمل على تخليقه، حسب الظروف والأساليب المتاحة والضرورية وهي تعرف كيف تفعل ذلك، كما دلت التجارب، ومهمتنا المساعدة في صنع المناخات لذلك، وإزالة ما أمكن من العقبات.

ما كتب في الموضوع كثير، لكن الكثير منه - على ما فيه من فوائد جمة ونظرات دقيقة هي موضع احترامنا ولا شك - لم يضع الأمور في نصابها حسب الرؤية التي انطلقنا منها، والتي ندعي صحتها، ونعمل في هذا الكتاب على جعلها مقنعة بالتحليل النقدي، والأدلة التاريخية والواقعية.

الكتاب ليس عملاً ثقافياً فكرياً غايته إبراز دور الثقافة والحضارة العربية والإسلامية والدفاع عنها، مع أن ذلك ليس عيباً ولا منقصة، بل هو واجب، وقد قام الكثيرون بأداء هذا الدور، باقتدار قد لا نمتلكه، ونحن نقدر جهدهم. لكن غاية الكتاب هي وضع الأمور في نصابها، تحديداً بإبراز أن الصدام موجود وتقوده المصالح والجبروت، والحوار موجود ولم ولن يختفي، وهو الأبقى أو هو الأصل في علاقة الحضارات ببعضها، بينما الصدام هو الاستثناء الذي تسعى إليه قوى موجودة، سواء داخل حضارة واحدة، أو بين حضارتين.

وننوه إلى أن ما يجده القارئ من تركيز على الحضارة العربية الإسلامية في كثير من المواقع، ليس سوى دليل حضورها في الذهن أكثر، بالتالي استمداد الأمثلة منها ودوران الحديث حولها وحول علاقاتها نتاج الغلبة لها على غيرها في تكوين الكاتب الثقافي، مع أن طيف الأمثلة والتحليلات من خارج هذه الثقافة، واضح لا تفتقده عين المدقق.

أرجو لهذا العمل أن يكون إضافة لا تصنف في الركام الكمي فقط، بل تضيف إلى التراكم النوعي جزئية، صغيرة كانت أو كبيرة.

أيضاً أنا مؤمن بأن الأفكار والآراء فيما كتبت وما سأكتب - ربما - محكومة بالنسبية، وخاضعة للنسبية في الأحكام والتقويم.

obeikandl.com